خلاصةُ تعظيمِ العلمِ

لصالحِ بنِ عبدِ اللهِ بْنِ حمدٍ العُصيميِّ (بتصرف)

الحمد لله المعظَّم بالتوحيد، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد المخصوص بأجلِّ المزيد، وعلى آله وصحبه أُولي الفضل والرأي السَّديد.

أما بعد:

فمن عظَّم العلم لاحت أنواره عليه، ووفَدَت رسل فنونه إليه، ولم يكن لِهِمَّتِهِ غاية إلا تلَقِّيه، ولا لنفسه لذة إلا الفكرُ فيه، وكأنَّ أبا محمد الدّارميَّ الحافظ ﵀ لَمَحَ هذا المعنى، فختم كتاب العلم من سننه المسماة بـ "المسند الجامع" ببابٍ في إعظام العلم.

وأعوَنُ شيء على الوصول إلى إعظام العلم وإجلاله: معرفةُ معاقد تعظيمه، وهي الأصول الجامعة، المحقِّقَةُ لِعَظَمَة العلم في القلب، فمن أخذ بها كان معظِّمًا للعلم مُجِلاًّ له، ومن ضيَّعها فلنفسه أضاع، ولهواه أطاع، فلا يلومنَّ – إن فتر عنه – إلاَّ نفسه، (يداك أَوْكَتا وفوك نَفَخَ)، ومن لا يُكرمُ العلمَ لا يُكْرِمُه العلمُ.

المعقد الأول: تطهير وعاء العلم

وهو القلب، فمن أراد حيازة العلم فليُزَيِّن باطنه، ويُطَهِّرْ قلبه من نجاسته، فالعلم جوهرٌ لطيفٌ، لا يصلح إلا للقلب النَّظيف.

وطهارة القلب ترجع إلى أصلين عظيمين:

1. طهارته من نجاسة الشُّبُهات.
2. طهارته من نجاسة الشَّهوات.

فمن طهَّر قلبه فيه العلم حلَّ، ومن لم يرفع منه نجاسته وَدَعَهُ العلمُ وارتحل.

المعقد الثاني: إخلاص النية فيه

إن إخلاصَ الأعمال أساسُ قبولها، وسُلَّمُ وصولها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5].

وفي الصحيحين عن عمر ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «الأَعْمالُ بالنِّيَّة ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى».

وإنما ينال المرء العلم على قدر إخلاصه.

ومن ضيع الإخلاص فاته علم كثير، وخير وفير.

والإخلاص في العلم يقوم على أربعة أصول، بها تتحقق نية العلم للمتعلِّم إذا قصدها:

1. رفع الجهل عن نفسه؛ بتعريفها ما عليها من العبوديات، وإيقافها على مقاصد الأمر والنهي.
2. رفع الجهل عن الخلق؛ بتعليمهم وإرشادهم لما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم.
3. إحياء العلم، وحفظه من الضياع.
4. العمل بالعلم.

ولقد كان السلف ﷺ يخافون فوات الإخلاص في طلبهم العلم، فيتورَّعون عن ادِّعائه، لا أنهم لم يحققوه في قلوبهم.

سئل الإمامُ أحمدُ: هل طلبت العلم لله؟ فقال: "لله عزيز!!، ولكنه شيء حُبِّبَ إليَّ فطلبتُه".

وينبغي لقاصد السَّلامة أن يتفقد هذا الأصل – وهو لإخلاص – في أموره كلِّها، دقيقِها وجليلِها، سرِّها وعَلَنِها.

ويحمِلُ على هذا التَّفقُّد شدة معالجة النِّيَّة.

قال سفيان الثوري ﷺ: "ما عالجت شيئا أشد علي من نيتي، لأنها تتقلب علي".

المعقد الثالث: جمع همَّة النَّفس عليه

تُجمَع الهِمَّة على المطلوب بتَفقُّد ثلاثة أمورٍ:

1. الحرص على ما ينفع، فمتى وُفِّق العبد إلى ما ينفعه حرَصَ عليه.
2. الاستعانة بالله ﷻ في تحصيله.
3. عدم العجز عن بلوغ البُغْية منه.

وقد جُمعت هذه الأمور الثلاثة في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «احْرِصْ عَلى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بالله وَلا تَعْجِزْ».

وإن مما يعلي الهمة ويسمو بالنفس: اعتبارَ حال من سبق، و تعرُّفَ هِمَم القوم الماضين.

فالخطيب البغدادي ﷺ قرأ صحيح البخاري كلَّه على إسماعيل الحيريِّ في ثلاثة مجالسَ؛ اثنان منها في ليلتين من وقت صلاة المغرب إلى صلاة الفجر، واليوم الثالث من ضحوة النَّهار إلى صلاة المغرب، ومن المغرب إلى طلوع الفجر.

وكان أبو محمد ابنُ التَّبَّان أوَّلَ ابتدائه يدرس اللَّيل كلَّه، فكانت أمُّه ترحمه وتنهاه عن القراءة بالليل، فكان يأخذ المصباح ويجعله تحت الجَفنة –شيءٍ من الآنية العظيمة– ويتظاهر بالنوم، فإذا رقدت أخرج المصباح و أقبل على الدَّرس.

فكن رجلا رِجْلُهُ على الثرى ثابتة، وهامة هِمَّته فوق الثُّريا سامقة، ولا تكن شابَّ البدن أشيبَ الهمَّة، فإن همَّة الصادق لا تشيب.

كان أبو الوفاء ابن عقيل –أحدُ أذكياء العالم من فقهاء الحنابلة– يُنشِد وهو في الثمانين:

ما شاب عزمي ولا حزمي ولا خُلقي ولا ولائي ولا ديني و لا كرمي
وإنما اعْتَاضَ شَعْري غَيْرَ صبغته والشَّيب في الشَّعر غيرُ الشَّيب في الهمم

المعقد الرابع: صرف الهمة فيه إلى علم القرآن و السنة

إن كل علم نافع مرده إلى كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وباقي العلوم: إما خادم لهما، فيؤخذ منه ما تتحقَّق به الخدمة، أو أجنبيٌّ عنهما، فلا يضُرُّ الجهل به.

وما أحسنَ قولَ عياضٍ اليَحصُبي في كتابه " الإلماع":

العلم في أصلين لا يعدوهما إلا المضِلُّ عن الطريق اللاَّحِبِ
علم الكتاب وعلم الآثار التي قد أُسندت عن تابعٍ عن صاحبِ

وقد كان هذا هو علم السلف عليهم رحمة الله، ثم كَثُر الكلام بعدهم فيما لا ينفع.

قال حماد بن زيد: قلت لأيوب السَّختيانيَّ: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم؟ فقال: "الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر".

المعقد الخامس: سلوك الجادة الموصلة إليه

إن للعلم طريقا من أخطأها ضل ولم ينل المقصود، وربما أصاب فائدة قليلة مع تعب كثير.

قال محمدُ مرتضى بنِ محمدٍّ الزَّبيديُّ –صاحب "تاج العروس"– في منظومة له تسمى "ألفية السَّنَد":

فما حوى الغايةَ في ألف سنهْ شخصٌ فخذْ من كلِّ فنٍّ أحسنهْ
بحفظ متنٍ جامعٍ للراجحِ تأخذه على مفيدٍ ناصح

فطريق العلم وَجادَّتُهَ مبنيَّةٌ على أمرين:

1. حفظ متن جامع للرَّاجح أي المعتمدِ عند أهل الفن، فلا بد من حفظٍ، ومن ظنَّ أنه ينال العلم بلا حفظٍ فإنه يطلب محالاً.

2. أخذه على مفيد ناصح، فتفزع إلى شيخ يتصف بهذين الوصفين:

وأوَّلُهُما الإفادة: وهي الأهليَّة في العلم، فيكون ممن عرف بطلب العلم وتلقيه حتى صارت له ملكةٌ قويَّةٌ فيه.

والأصل في هذا ما أخرجه أبو داود في سننه بإسناد قوي عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع ممَّن يَسمع منكم».

أما الوصف الثاني فهو النصيحة، و تجمع معنيين اثنين:

أحدهما: صلاحية الشيخ للاقتداء به، و الاهتداء بهديه ودَلِّه وسَمْته.

والآخر: معرفته بطرائق التَّعليم، بحيث يحسن تعليمَ المتعلِّم، ويعرف ما يَصلُح له وما يضرُّه، وَفق التربية العلميَّة التي ذكرها الشاطبيُّ في "الموافقات".

المعقد السادس: رعاية فنونه في الأخذ، وتقديم الأهم فالأهم

إنما تنفع رعاية فنون العلم باعتماد أصلين:

1. تقديم الأهم فالمهم، مما يفتقر إليه المتعلم في القيام بوظائف العبودية لله.
2. أن يكون قصده في أول طلبه تحصيلَ مختصرٍ في كل فن، حتى إذا استكمل أنواع العلوم النَّافعة، نظر إلى ما وافق طبعه منها، وآنس من نفسه قدرة عليه، فتبحر فيه، سواءٌ كان فنا واحدا أم أكثر.

ومن طيَّار شعر الشناقطة:

وإن ترد تحصيل فن تَمِّمَهْ وعن سواه قبل الانتهاء مَهْ
وفي ترادف العلوم المنعُ جا إن توأمان استبقا لن يخرجا

ومن عرف من نفسه قدرة على الجمع جمع، وكانت حاله استثناءً من العموم.

المعقد السابع: المبادرة إلى تحصيله، واغتنام سن الصبا والشباب

العلم في سن الشباب أسرع إلى النفس، وأقوى تعلقًا ولصوقًا.

قال الحسن البصري رحمه الله: "العلم في الصغر كالنقش في الحجر" ، فمن اغتنم شبابه نال إرْبَه، وحَمِد عند مشيبه سُراه.

اغتنم سن الشباب يا فتى عند المشيب يحمد القوم السُّرى

ولا يُتَوهَّم من هذا أن الكبير لا يتعلَّم، بل ذكر البخاريُّ رحمه الله في كتاب العلم من "صحيحه" أن أصحاب رسول الله تعلموا كبارا. وإنما يعسر التعلم في الكبر لكثرة الشواغل، وغلبة القواطع، وتكاثر العلائق، فمن قدر على دفعها عن نفسه أدرك العلم.

المعقد الثامن: لزوم التأني في طلبه، وترك العجلة

إنَّ تحصيل العلم لا يكون جملة واحدة؛ إذ القلب يضعف عن ذلك؛ وإن للعلم فيه ثِقَلاً كثِقَل الحجر في يد حامله.

فينبغي لزوم التأني في طلب العلم والتدرُّج فيه، وترك العجلة، ومقتضى ذلك: البداءة بالمتون القصار المصنفة في فنون العلم، حفظا واستشراحا، والميل عن مطالعة المطوَّلات التي لم يرتفع الطالب بعد إليها.

ومن تعرض للنظر في المطولات فقد يجني على دينه، وتجاوزُ الاعتدال في العلم ربما أدى إلى تضييعه، ومن بدائع الحِكَم قول عبد الكريم الرِّفاعيِّ -أحدِ شيوخ العلم بدمشقَ الشام- : " طعام الكبار سمُّ الصغار".

المعقد التاسع: الصبر في العلم تحملا وأداءً

صبر العلم نوعان:

1. صبرٌ في تحمُّله وأخذه، فالحفظ يحتاج إلى صبرٍ، والفهم يحتاج إلى صبرٍ، وحضور مجالس العلم يحتاج إلى صبرٍ، ورعاية حقِّ الشيخ تحتاج إلى صبرٍ.
2. صبر في أدائه وبثه وتبليغه إلى أهله، فالجلوس للمتعلِّمين يحتاج إلى صبرٍ، وإفهامُهم يحتاج إلى صبرٍ، واحتمال زلَّاتهم يحتاج إلى صبرٍ.

وفوق هذين النوعين من صبر العلم، الصَّبر على الصَّبر فيهما، والثبات عليهما.

لكلٍّ إلى شأوِ العُلا وَثَباتُ ولكنْ عزيزٌ في الرجال ثباتُ

المعقد العاشر: ملازمة آداب العلم

قال ابن القيم رحمه الله:"أدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلَّةُ أدبه عنوان شقاوته وبَواره، فما استُجلب خير الدنيا و الآخرة غلا بمثل الأدب، ولا استُجلب حرمانُهما بمثل قلة الأدب".

والمرء لا يسمو بغير الأدبِ وإن يكن ذا حَسَبٍ وَنَسَبِ

وإنما يصلح للعلم من تأدب بآدابه في نفسه ودرسه، ومع شيخه وقرينه.

لأن المتأدبَ يُرى أهلا للعلم فيُبْذَلُ له، وقليل الأدب يُعَزُّ العلم أن يضَيَّعَ عنده. قال يوسف بن الحسين: "بالأدب تفهم العلم".

قال ابن سيرين رحمه الله: "كانوا يتعلمون الهَديَ كما يتعلمون العلم".

بل إن طائفة منهم يقدمون تعلمه على تعلم العلم.

قال مالك بن أنس لفتى من قريش: "يا أخي تعلم الأدب قبل أن تتعلم العلم".

وكانوا يظهرون الحاجة إليه.

قال مَخْلَد بن الحسين لابن المبارك يوما: "نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم".

وكانوا يوصون به، ويرشدون إليه.

قال مالك: "كانت أمي تعمِّمُني، وتقول لي: اذهب إلى ربيعةَ فتعَلَّمْ من أدبه قبل علمه". وربيعة فقيه أهل المدينة في زمنه.

وإنما حُرم كثيرٌ من طلبة العصر العلمَ بتضييع الأدب.

أشرف اللَّيْث بن سعدٍ رحمه الله على أصحاب الحديث، فرأى منهم شيئا كأنه كرهه، فقال: "ما هذا؟! أنتم إلى يسيرٍ من الأدب، أحوج منكم إلى كثير من العلم".

فماذا يقول الليث لو رأى حال كثير من طلاب العلم في هذا العصر؟!

المعقد الحاديَ عشرَ: صيانة العلم عما يَشين، مما يُخالف المروءة و يخرِمها

من لم يصُنِ العلم لم يصُنْهُ العلمُ -كما قال الشافعيُّ-، ومن أخل بالمروءة بالوقوع فيما يَشين فقد استخفَّ بالعلم، وجماع المروءة كما قاله ابن تيمية الجدُّ: "استعمال ما يُجمِّله ويَزينه، وتجنُّبُ ما يُدنِّسه ويَشينه".

قيل لأبي محمد سفيانَ بن عيينةَ: قدِ استنبطتَ من القرآن كلَّ شيء، فأين المروءة فيه؟ فقال: "في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

ففيه المروءة، وحسن الأدب، ومكارم الأخلاق".

ومن أَلْزَم أدبِ النَّفْس للطالب: تحلِّيه بالمروءة، وما يحمِل عليها، وتَنَكُّبُه خوارمها التي تخلُّ بها، كحلق لحيته، أو كثرة الالتفات في الطريق، أو مد الرجلين في مجمع الناس من غير حاجةٍ ولا ضرورةٍ داعية، أو صحبةِ الأراذل والفسَّاق والمجَّان والبطَّالين، أو مصارعة الأحداث والصِّغار.

المعقد الثانيَ عشرَ: انتخاب الصحبة الصَّالحة له

يحسن بقاصد العُلا انتخاب صحبة صالحة تُعينه؛ فإن للخليل في خليله أثرا.

والزمالة في العلم إن سلمت من الغوائل نافعةٌ في الوصول إلى المقصود.

روى أبو داود والترمذي عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «اَلرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلِ».

قال ابن مانع ﷺ في "إرشاد الطلاب" –وهو يوصي طالب العلم-: "ويَحْذَر كل الحذر من مخالطة السفهاء، وأهل المجون والوقاحة، وسيِّئِي السُّمعة، والأغبياء، والبُلَداء؛ فإن مخالطتهم سبب الحرمان وشقاوةِ الإنسان".

المعقد الثالثَ عشرَ: بذل الجهد في تحفُّظ العلم والمذاكرة به، والسُّؤال عنه.

إذ تَلَقِّيه عن الشُّيوخِ لا ينفع بلا حفظٍ له، ومذاكرةٍ به، وسؤالٍ عنه؛ فهؤلاء تحقق في قلب طالب العلم تعظيمه؛ بكمال الالتفات إليه والاشتغال به،فالحفظ خَلوة بالنفس، والمذاكرة جلوسٌ إلى القرين، والسؤال إقبال على العالم.

ولم يزل العلماء الأعلام يحضُّون على الحفظ ويأمرون به.

قال ابن عثيمين ﷺ: " حفظنا قليلا وقرأنا كثيرا، فانتفعنا بما حفظنا أكثر من انتفاعنا بما قرأنا".

وبالمذاكرة تدوم حياة العلم في النَّفس، ويقوى تعلقه بها.

وبالسؤال عن العلم تُفتتح خزائنه، فحُسْن المسألة نصف العلم.

وهذه المعاني الثَّلاثة للعلم: بمنزلة الغرس للشَّجر وسقيه وتنميته بما يحفظ قوَّته ويدفع آفته، فالحفظ غرس العلم، والمذاكرة سقيه، والسُّؤال عنه تنميته.

المعقد الرابعَ عشرَ: إكرام أهل العلم وتوقيرهم

إن فضل العلماء عظيمٌ، ومنصِبهم منصبٌ جليلٌ؛ لأنهم آباء الروح، فالشَّيخ أبٌ للروح كما أن الوالد أبٌ للجسد، فالاعتراف بفضل المعلِّمين حق واجبٌ.

وقد أمر الشرع برعاية حق العلماء؛ إكراما لهم، وتوقيرا، وإعزازا.

فقد روى أحمد في المسند عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنا، وَيَعْرِفْ لِعالِمِنا حَقَّهُ».

ونقل ابن حزم الإجماع على توقير العلماء وإكرامهم.

فمن الأدب اللَّازم للشَّيخ على المتعلم: التواضعُ له، والإقبالُ عليه، وعدم الالتفات عنه، ومراعاةُ أدب الحديث معه، وإذا حدَّث عنه عظَّمه من غير غُلوٍّ، بل يُنزلُهُ منزلته؛ لئلا يَشينه من حيث أراد أن يمدحه، وليشكرْ تعليمه ويَدْعُ له، ولا يُظهرُ الاستغناءَ عنه، ولا يؤْذِهِ بقولٍ أو فعلٍ، وليتلطَّفْ في تنبيهه على خَطَئِهِ إذا وقعت منه زلَّة.

والواجب إزاء زلة العالم ستة أمور:

1. التثبت في صدور الزلة منه.
2. التثبت في كونها خطأً، وهذه وظيفة العلماء الراسخين، فيُسألون عنها.
3. ترك اتَّباعه فيها.
4. التماس العذر له بتأويلٍ صائغٍ.
5. بذل النُّصح له بلطفٍ وسرٍّ، لا بعنف و تشهير.
6. حفظ جنابه، فلا تُهدر كرامته في قلوب المسلمين.

ومما يُحَذَّرُ منه مما يتصل بتوقير العلماء، ما صورته التوقير ومآله الإهانة والتَّحقير، كالازدحام على العالم، والتَّضييق عليه، وإلجائه إلى أعسر السُّبل.

المعقد الخامسَ عشرَ: ردُّ مشكله إلى أهله

فالمعظِّم للعلم يعوِّل على دَهَاقِنَتِهِ والجهابذة من أهله لحلِّ مشكلاته، ولا يُعَرِّضُ نفسه لما لا تُطيق؛ خوفًا من القول على الله بلا علم، والافتراءِ على الدين، فهو يخاف سَخْطَةَ الرحمان قبل أن يخاف سوْطَ السلطان؛ فإن العلماء بعلم تكلموا، وببَصر نافذٍ سكتوا، فإن تكلموا في مُشْكِلٍ فتكلمْ بكلامهم، وإن سكتوا عنه فليسَعْكَ ما وَسِعهم.

ومن أشقِّ المشكلات الفتنُ الواقعةُ، والنَّوازلُ الحادِثةُ، التي تتكاثر مع امتداد الزمن.

والناجحون من نار الفِتَنِ، السَّالمون من وَهَج المِحَنِ، هم من فزِعَ إلى العلماء ولزم قولهم، وإن اشتبهَ علَيه شيءٌ من قولهم أحسنَ الظَّنَّ بهم، فطرح قولهُ وأخذ بقولهم، فالتَّجبة والخِبْرة هم كانوا أحقَّ بها وأهلها، وإذا اختلفت أقوالُهم لزم قولَ جمهورهم وسوادهم؛ إيثارا للسَّلامةِ؛ فالسلامة لا يعدلها شيءٌ.

وما أحسن قول ابن عاصم في"مرتقى الوصول":

وواجبٌ في مشكلات الفهم تحسينُنَا الظن بأهل العلم

ومن جملة المشكلات ردُّ زلَّات العلماء، والمقالاتِ الباطلة لأهل البدع والمخالفين؛ فإنما يتكلم فيها العلماء الراسخون.

فالجادَّة السالمة: عرضها على العلماء الراسخين، والاستمساك بقولهم فيها.

المعقد السادسَ عشرَ: توقير مجالس العلم، وإجلال أوعيته

على طالب العلم أن يعرف لمجالس العلم حقها، فيجلِسَ فيها جِلسة الأدب، ويصغي إلى الشيخ ناظرًا إليه، فلا يلتفت عنه من غير ضرورةٍ، ولا يضطرب لضجَّةٍ يسمعها، ولا يعبَثُ بيديه أو رجليه، ولا يستَنِدُ بحضرة شيخه، ولا يتَّكئُ على يده، ولا يكثرُ التَّنحنح والحركة، ولا يتكلَّم مع جاره، وإذا عطس خفَضَ صوته، وإذا تثاءب ستر فمه بعد ردِّه جَهْدَه.

وينضم إلى توقير مجالس العلم إجلال أوعيته التي يُحفظ فيها، وعمادها الكتب، فاللَّائق بطالب العلم: صون كتابه، وحفظُه وإجلالُه، والاعتناءُ به، فلا يجعلْهُ صندوقا يحشوه بودائعه، ولا يجعلْه بوقا، وإذا وضعه وضعه بلطفٍ وعنايةٍ.

ولا يتكئُ على الكتاب، أو يضعُهُ عند قدميه، وإذا كان يقرأ فيه على شيخٍ رفعه عن الأرض، وحمله بيديه.

رمى إسحاق بن راهَوَيْه يوما بكتاب كان في يده، فرآه أبو عبد الله أحمد بن حنبل فغضب، وقال: "أهكذا يفعل بكلام الأبرار؟!"

المعقد السابعَ عشرَ: الذَّبُّ عن العلم، والذَّوْد عن حِياضه

إن للعلم حرمةً وافرةً، توجب الانتصار له إذا تُعرِّض لجنابه بما لا يصلحُ.

وقد ظهر هذا الانتصار عند أهل العلم في مظاهرَ؛ منها:

1. الردُّ على المخالف، فمن استبانت مخالفته للشَّريعة رُدَّ عليه كائنا من كان، حميَّةً للدِّين، ونصيحة للمسلمين.
2. هجرُ المبتدع؛ فلا يؤخذ عنه العلم إلا إذا اضْطُرَّ إليه.
3. زَجْر المتعلم إذا تعدى في بحثه، أو ظهر منه لدد أو سوءُ أدبٍ.

المعقد الثامنَ عشرَ: التحفظ في مسألة العالم

فرارًا من مسائل الشَّغْب، وحفظا لهيبة العالم؛ فإن من السؤال ما يراد به التشغيبُ وإيقاظ الفتنة وإشاعة السُّوء، فلا بد من التَّحفظ في مسألة العالم، ولا يفلح في تحفُّظه فيها إلا من أعمل أربعة أصولٍ:

1. الفكر في سؤاله لماذا يسأل؟ فيكون قصده من السُّؤال التفقه والتعلم، لا التعنُّت والتهكُّم، فإن من ساء قصدُه في سؤاله يُحرَم بركةَ العلم، ويُمنع منفعته.
2. التفطُّن إلى ما يَسأل عنه، فلا تسأل عما لا نفع فيه.

3. ومثله السؤال عما لم يقع، أو ما لا يُحدَّث به كل أحد، وإنما يُخصُّ به قوم دون قوم.
4. الانتباه إلى صلاحية حال الشيخ للإجابة عن سؤاله، فلا يسأله في حالٍ تمنعُهُ، ككونه مهمومًا، أو متفكِّرًا، أو ماشيًا في طريقٍ، أو راكبًا سيَّارتَه، بل يتحينُ طيب نفسه.
5. تيقُّظ السائل إلى كيفيَّة سؤاله، بإخراجه في صورة حسنة متأدبة، فيُقدّم الدُّعاء للشيخ ويبَجِّله في خطابه، ولا تكون مخاطبته له كمخاطبته أهلَ السوق وأخلاطَ العوام.

المعقد التاسع عشر: شغف القلب بالعلم وغلبته عليه

فصدق الطلب له يوجب محبَّته، وتعلُّق القلب به، ولا ينال العبدُ درجةَ العلم حتى تكون لذَّته الكبرى فيه.

وإنما تُنال لذَّة العلم بثلاثة أمورٍ، ذكرها أبو عبد الله ابن القيم ﵀ تعالى:

1. بذل الوُسع والجَهد.
2. صدق الطلب.
3. صحة النية و الإخلاص.

ولا تتم هذه الأمور الثلاثة، إلا مع دفع كل ما يُشغل عن القلب.

ومتى عُمِر القلب بلذة العلم سقطت لذات العادات، وذَهَلَتِ النَّفسُ عنها، بل تستحيل الآلامُ لذَّةً بهذه اللَّذَّة.

المعقد العشرون: حفظ الوقت في العلم

قال ابن الجوزي ﵀ في صيد خاطره: "ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يُضيِّع منه لحظةً في غير قُربةٍ، ويُقدِّم فيه الأفضل فالأفضل من القول و العمل".

ومن هنا عظُمت رعاية العلماء للوقت، حتى قال محمَّد بن عبد الباقي البزَّاز: "ما ضيَّعتُ ساعةً من عمري في لهوٍ أو لعبٍ".

وقال أبو الوفاء ابن عقيل – الذي صنف كتاب الفنون في ثمانمائة مجلد –: "إني لا يحل لي أن أُضيِّع ساعة من عمري".

وبلغَتْ بهمُ الحال أن يُقرأ عليهم حال الأكل، بل كان يُقرأ عليهم وهم في دار الخلاء.

فاحفظْ أيُّها الطَّالبُ وقتَك، فلقد أبلغ الوزيرُ الصَّالح ابنُ هُبيرة في نصحك بقوله:

والوقت أنفسُ ما عُنيتَ بحفظه وأراه أسهلَ ما عليك يضيعُ